

### شخصيات من الحرمين الشريفين (١٣)

## بلال أحد أحد مؤذن رسول الله

حسن محمد

ما أعظمك يا بلال، وقد اقترن اسمك بكلمات لم يسبقك إليها أحدٌ، حتى غدت سلاحك الوحيد الذي تدافع به عن نفسك، حيث كانت تخلق فيك صموداً لا يهزم، وثباتاً لا يلين، وقد تلوّت على ظهرك سيّاطهم، ومزّقت جسدك حديدتهم المحمّاة. في رمضان مكّة وهيب رمالها، وأنت تردّدها كلمات خالدة.. أحدٌ أحد، أحدٌ أحد.. حتى غدت انشودتك التي لم تجد أجمل منها وأحلى.. ولم ينطق لسانك بشيء غيرها.. فكانت أمضّ سلاح ينخر صدورهم، ويهزّ كبرياءهم.. ويغيض قلوبهم، وهو ما كنت تبحث عنه وتتمناه.

وما أعظمك يا بلال، وقد اقترن اسمك بأعظم نداء عرفته الدنيا وردّته الأجيال!

وما أحسن عاقبتك يا بلال، وقد خلّدت بخلود كلّ فصل من فصول هذا الأذان، وكلّ كلمة من كلماته، بل وكلّ حرفٍ من حروفه، ولحنٍ من ألحانه، ونغمةٍ من نغماته...!

وما أعظم ذكراك، وقد امتزجت بذكرى هذا الأذان، الذي راح يدويّ خمس



مَرَّاتٍ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ ، تَرُدُّهُ الْأَلْسُنُ ، وَتَهْفُو إِلَيْهِ الْقُلُوبُ ، وَتَطْمَئِنُّ بِهِ النَفُوسُ فَمَا  
إِنْ يَسْمَعُ أَحَدُنَا مُؤَذِّنًا يَرْفَعُ الْأَذَانَ حَتَّى يَتْبَادِرَ إِلَى الذَّهْنِ بِلَالٍ ، وَمَا إِنْ نَسْمَعُ صَوْتًا  
نَدِيًّا شَجِيئًا إِلَّا وَرَاحَ بِلَالٌ بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ شَاخِصًا حَيًّا ، وَكَيْفَ لَا يَحْيَى وَقَدْ اقْتَرَنْتَ  
حَيَاتَهُ بِحَيَاةِ هَذَا الْأَذَانِ فَنَعَمْ الْقَرِينُ !؟

\*\*\*

إِنَّهُ وَاحِدٌ مِمَّنْ قَضَى عَمْرَهُ بَيْنَ عِبُودِيَّتَيْنِ : عِبُودِيَّةٍ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ أَكْرَهَ عَلَيْهَا  
وَكُلَّهَا تَسْخِيرَ وَذَلٍّ وَظَلَمٍ ، مُقَابِلَ ثَمَنٍ بِخَسٍّ لَا يَتَعَدَّى رَغِيفَ خُبْزٍ وَافْتِرَاشَ  
أَرْضٍ ..

وَعِبُودِيَّةَ اللَّهِ ، خَطِيئُ نَحْوِهَا بِإِرَادَتِهِ وَرَغْبَتِهِ ، فَكَانَتْ عِزًّا فِي الدُّنْيَا وَكَرَامَةً فِي  
الْآخِرَةِ ، وَكَانَتْ خُلُودًا هِيَ الْآخِرَى فِي الدُّنْيَا ، وَخُلُودًا فِي الْآخِرَةِ ... فَشَتَّانِ شَتَّانِ  
بَيْنَ الْعِبُودِيَّتَيْنِ !!

كَانَ بِلَالٌ مِنْ فِتَّةِ الْعَبِيدِ تِلْكَ الَّتِي سَخَّرَهَا سَادَةُ الْمَجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ وَكِبَرَاؤُهُ فِي نَوَاحِ  
خُدْمَةِ كَثِيرَةٍ وَأُخْرَى قِتَالِيَّةٍ ...

وَمَا إِنْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِدَعْوَتِهِ الْمُبَارَكَةِ الْجَدِيدَةِ ، رَحْمَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا ، حَتَّى  
رَاحَتْ قُلُوبٌ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءِ تَجِدُ أَمَانَهَا فِيهَا وَطَمَأْنِينَتَهَا ...

فَتَوَجَّهُوا نَحْوَهَا كَأَعْظَمِ مَلْجَأٍ لَهُمْ وَمَلَاذٍ ، لَتَنْتَشِلَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ اضْطِهَادٍ  
مُتَوَاصِلٍ وَعَذَابٍ دَائِمٍ وَذَلٍّ مُسْتَمِرٍّ ، مِنْ خِزْيٍ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٍ فِي الْآخِرَةِ ، إِلَى  
عَبْقِ الْحَرِيَّةِ وَالْمَسَاوَاةِ ، وَإِلَى فِرْدَوْسٍ يَنْتَظِرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ..

وَهُمْ يَسْمَعُونَ : « لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا  
بِالتَّقْوَى » .

وَهُمْ يَقْرَأُونَ : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي  
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفِتَّةُ مِنَ النَّاسِ تَشْخِصَ بِأَبْصَارِهَا بَعِيدًا وَكَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ مِنْ ذَلِكَ

الأفق البعيد منقذاً ظلّت تعيشه حلماً جميلاً يهوّن عليها ما هي فيه من هوان ويزرع في نفوسها الأمل والطموح والرغبة في حياة إيمانيّة تنقذهم ممّا هم فيه من ضلال وعذاب... فما إن رأت واقعاً أمامها حتّى بادرت إلى التصديق به والتضحية في سبيله، فكان لهم قصب السبق في نصرة هذه الدعوة الخالدة والدفاع عنها بأرواحهم وأجسادهم وما يملكون حتّى تمّ نصر الله والفتح.

لم يتأخّر بلال كثيراً، فقد ردّد الشهادتين، وأعلن بذلك إسلامه مع رفاقه في الآلام، فبدأوا بذلك حياةً جديدةً.. إلّا أنّ الأيدي الظالمة لم تتركهم، فقد راح أسيادهم يصبّون عليهم جام غضبهم، وينزلون بهم أقسى أساليب التعذيب وأشكاله..

ومع كلّ هذا رأت هذه الفئة التي هانت عليها نفوسها في الله تعالى، أنّ ما ينزل بها من عذاب هو غير ذلك العذاب، وأنّ ما يحلّ بها من ظلم وقسوة هي غير تلك القسوة، لقد رأت بهذا كلّ حلاوة ونشوة، ولهذا تحمّلت، وراحت تردّد مع بلال كلماته المشهورة على لسان واحدٍ، ومن قلوب ملئت إيماناً وحبّاً لله حتّى غدت كيانهن كلّ: أحدٌ أحد. وجدت بها بلسمها ودواءها وحرّيتها، التي فقدتها سنين طويلة، فيما راحت الأجيال المؤمنة تعيش ذكراهم، وتردّد صدى ما تعودته ألسنتهم، ووعته قلوبهم..

لقد أسلم بلال، وهو من الأوائل الذين أعلنوا إسلامهم، وراح يشهد مشاهد رسول الله ﷺ كلّها بدماءً وأحدًا والخنوق، وفتح مكّة..

\*\*\*

إنّه بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الكريم، وأبو عمرو الحبشي، أمّه حمّامة. وكان مولى أميّة بن خلف، الذي كان واحداً من طغاة قريش، وقد أوغل في ظلمه لبلال... ثمّ بعد ذلك اشتراه أبو بكر بن أبي قحافة، فظلّ مولى له حيناً من الوقت.

**صفاته**

كان بلال آدم، شديد الأدمة، نحيفاً طوالاً، أجنأ أي في كاهله انحناء، إلا أنه ليس بالأحذب، له شعر كثيف، خفيف العارضين.  
أما صوته فجميل قوي، ينتشر بعيداً، وكانت له ترنيمة شجيّة، عرفته أرجاء مكّة بندائه الجميل، شفيت به الأبدان المكدودة، وتماثلت به النفوس المعتلّة السقيمة..

هيباً هذا الصوت لأن يكون أوّل منادٍ بنداء التوحيد، ينبذ الشرك والشركاء، عبر أجمل وأعظم فصول تردّها الشفاه، وتنطلق بها الألسن، وتتعلّق بها القلوب، وتشتاق لها الأنفس، وتشفى بها الأجسام، «أرحنا يا بلال»، هكذا كان يناديه رسول الله ﷺ.

نعم، أنيط به أذان أعظم أركان الإسلام، وأقدس شعيرة جاء بها الدين الحنيف، إنّها الصلاة، إنّها اللقاء المباشر بين العبد وربّه..

وهذا ما كان يتمناه بلال، فينتقل من مجرّد عبد حبشي لا غير إلى عبد صالح لله وحده، فتنهال عليه بركات السماء، فيخلد مؤمناً صلباً، ذلّت له عنجهية قريش وكبرياءها، بعد أن تكسّرت عليه سيّاطهم، سيّاط المجلّادين، دون أن تنال منه شيئاً، بل ما زادته إلا عزّاً وكبرياء.

**بلال وأمّية**

بلال بين يدي سيّده أمّية بن خلف في رحلة العذاب، حيث راح هذا الأخير يذيق ذاك العبد الصالح، والسابق الأواب، صنوفاً من العذاب.

في كلّ ظهيرة، حيث شمس الحجاز المحرقة، ورمالها الملتهبّة في بطحاء مكّة، يوضع هذا الجسد العظيم بين نارين ونار ثالثة يمسك بها أمّية وأعوانه، وصخرة كبيرة ترقد على صدر بلال فتقطع عليه أنفاسه، ها أنت يا بلال بين خيارين لا ثالث لهما؛ إمّا أن تموت بسيّاطنا وصخورنا وحديدنا المكواة، وإمّا أن تكفر بمحمّد

ابن عبدالله، فتعود إلى (عبادة اللات والعزى)، فتنال محبتنا... إلا أنهم خابوا وخابت جميع محاولاتهم، وخسئت سياطهم وعصيمهم وحديدهم من أن تنال من عزمه الراسخ وإيمانه العظيم، الذي لا يلين أو يضعف... كلمة واحدة مختصرة لا غير، راح لسان بلال يلهج بها، وتركها عبر التاريخ والأجيال خالدةً مدويةً تعلم الأحرار والمؤمنين الصمود والإباء، حروف ثلاثة، كل حرف يعدل الوجود كله خيراً وعطاءً: أحد، أحد، لم يتلفظ غيرها أبداً، وهو بين رمالٍ ملتبة وشمسٍ محرقة، وصخرة تجثم على صدره فتقطع أنفاسه، فلا ينطق إلا بهذه الحروف وما أعظمها وأقدسها وأجملها! بصوت ضعيف قد لا يسمعه أحدٌ حتى هو بعد أن أضعفه الجوع والعطش والألم.. شفاه تتحرك، بل تتمتم بها.. أحدٌ أحد، نعم أحدٌ أحد.

صموداً ما أعظمه، غدا بعده مدرسة، وظلّ ذكرى عظيمة، لا تملاها الأجيال، راحت كلمات بلال تدوي في بطحاء مكة وأجوائها... كما راحت ألسن الجميع ترددها من بعده... فكانت صاعقة تنزل على مسامع مشركي قريش، فيجنّ جنون أُمّية، وتسيطر سورة الغضب عليه... فينهال على بلال بوسائله البشعة، بسياطه وحديده، وألفاظه القذرة، يركله، يضربه، يشتمه...

وبلال يزداد صموداً وتألقاً.. أحد، أحد.. وهكذا ظلّ هذا المعذب أياماً وليالي.. بلال لا يريد منك شيئاً.. اذكر فقط آهتنا بخير.. لقد أتعبهم بلال وثباته.. حتى غدا كل واحد منهم وكأنّه هو المعذب لا بلال.

فسئم أُمّية.. يا أبا جهل عليك به.. فصبّ عليه جام غضبه.. وأذاقه صنوف العذاب.. حتى كلوا وعجزوا.. فاستعانوا بصبيانهم وسفهاءهم، ليضعوا حبلاً في عنق بلال... ليطوفوا به بين أخشي مكة، بين أزقة هذين الجبلين اللذين يحيطان بمكة «أبو قبيس والأحمر».

ولم يترك كلماته العظيمة.. إنها انشودته التي لا يملّها ولا تملّه.. وبصوته



الرخيم: أحمّد أحد.. فتذهل أنفسهم، وتتشعر جلودهم.. ويسقط ما في أيديهم..  
إنّهم أنشودة بلال، التي غدت شعاراً للمسلمين في أولى معارك الإسلام في بدر.  
يا أميّة ألا تتقي الله في هذا المسكين؟!  
يا أميّة حتّى متى؟!  
فيجيب أميّة: أنت أفسدت، فأنقذه ممّا ترى.

فما كان من أبي بكر، إلّا أن اشتراه بخمس أواق... وفكّر وأن يربحوا منه فهو  
أفضل من موته بين أيديهم، بعد أن يئسوا من عودته إليهم... واستوقفهم مرّة أميّة  
ابن خلف قائلاً لأبي بكر: خذه، فواللّات والعزى، لو أبيت إلّا أن تشتريه بأوقية  
واحدة لبعته بها.

فيجيبه أبو بكر: والله لو أبيتم إلّا مئة أوقية لدفعتها.  
ثمّ اعتقه لوجه الله تعالى، ليواصل جهاده ودعوته إلى الله.  
يقول عمّار بن ياسر وهو يصف بلالاً وقوّته وصموده..

|                              |                                            |
|------------------------------|--------------------------------------------|
| جزى الله خيراً عن بلال وصحبه | عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهل               |
| عشية هما في بلال بسوء        | ولم يحذرا ما يحذر المرء ذو العقل           |
| بتوحيده ربّ الأنعام وقوله    | شهدت بأنّ الله ربّي على مهل                |
| فإن يقتلوني يقتلوني فإن أكن  | لأشرك بالرحمن من خيفة القتل <sup>(١)</sup> |

### المواخاة

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ وهاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة، راح  
رسول الله ﷺ يبني أسس المجتمع المؤمن على أسس متينة، وكانت المواخاة واحدة  
من تلك الأسس، فأخى بين المهاجرين والأنصار، فكان نصيب بلال من هذه

(١) حلية الأولياء ١: ١٤٨.

المؤاخاة أن آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي رويحة عبدالله بن عبد الرحمن الخثعمي .

ظلّ هذا العبد الصالح وفيّاً لهذه الأخوة .

يقول ابن هشام في سيرته : ( فلما دوّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام ، فأقام بها مجاهداً .

قال عمر لبلال : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟

قال : مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبداً ، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بيني وبينه ، فضمّ إليه <sup>(١)</sup> .

#### الثلة المعذبة وآيات قرآنية

بلال وعمار وخبّاب وصهيب وأبو جندل ... وغيرهم ، مؤمنون معذبون انصبّ جام غضب قريش عليهم تجويعاً وتعذيباً وتنكيلاً وسخريةً ... وقبال كلّ ما عانوه من آلام وسيّاط وظلم واضطهاد ...

ظلّ كتابُ الله تعالى يواكبهم في بعض آياته مواساةً لهم ورعايةً وتشبّثاً ومؤازرةً ... كما راحت تعلّم الآخرين من المؤمنين على الاهتمام بهذه الشريحة المؤمنة ، وعدم تركها بعيدةً عن اهتمامهم ، فتبقى وحيدةً فريضةً أمام جبروت المشركين وطغيانهم حتّى بعد أن أعلن هؤلاء إسلامهم ، لكنّ عنجهيتهم الجاهلية وكبرياءهم كانا يابيان عليهم مجاملة هذه الفئة المضطهدة المستضعفة ... ظلّت سخريتهم تلاحق هؤلاء ، وظلّ التعالي عليهم علامةً بارزةً في تعاملهم مع الشريحة المؤمنة هذه .. بل مكثوا على سيرتهم هذه وتعاملهم هذا طيلة حياتهم ، وكأنّ الإسلام الذي أعلنته ألسنتهم لم يترك أثره على قلوبهم ، فظلّوا أقرب للنفاق منه إلى الإيمان بالدين الجديد .. إنّها صفات الجاهلية القذرة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٥٠٧ .



التي امتزجت بها أرواحهم، وعكفت عليها قلوبهم، وانطوت عليها سريرتهم، ولولا سيف الإسلام؛ لبقوا على حالتهم الأولى وآلهم، التي ظلّوا عليها وآبأؤهم عاكفين.

ومثال واحد نذكره يبيّن لنا موقف كبار هؤلاء القرشيين من المعذّبين واحتقارهم لهم حتّى بعد أن أعلنوا الشهادتين.

فقد حضر الناس يوماً باب عمر بن الخطّاب في خلافته، وفي هؤلاء الناس أبو سفيان بن حرب وشيوخ من قريش، وكان مع هؤلاء الناس سهيل بن عمرو ابن عبد شمس العامري، وهو الذي عقد صلح الحديبية مع النبي ﷺ ورفض أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، التي أمر رسول الله ﷺ بكتابتها، قائلاً: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم، ورفض أيضاً ما أمر به رسول الله ﷺ أن يكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله.. قائلاً: لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

هذه مواقف سهيل قبل إسلامه، وما أجمل مواقفه بعد إسلامه! كان مع هؤلاء الناس الذين قدموا للدخول على الخليفة، فبعد أن خرج الإذن من الخليفة الثاني لأهل بدر دون الآخرين، أي لصهيب الرومي وبلال الحبشي وغيرهم من المعذّبين.. لم يتحمّل أبو سفيان وزمرته هذا، فقال: ما رأيك كالיום قط، إنّهُ ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا.

وهنا تصدّى له سهيل بن عمرو مدافعاً عن هؤلاء المعذّبين، أيّها القوم، إنّّي والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودعيتهم، فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشدّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافسون فيه.

ثمّ قال: أيّها القوم، إنّ هؤلاء قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه، عسى الله عزّ وجلّ أن



يرزقكم الشهادة...<sup>(١)</sup>.

ومن الآيات التي نزلت فيهم:

● ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ما انفكت قريش تلاحق هؤلاء المعذبين انطلاقاً من ضلالها وعنادها وكبريائها، وظلّ كبريائها وتعنّتها يزداد هؤلاء المؤمنين خوفاً من استفحال أمرهم، وبالتالي القضاء على زعامتها وسيادتها التي تطمح أن تخلد لها دون منازع من العالمين؛ لهذا لم تطق قريش ما تراه من إيمان هذه الفئة وصمودها، فراحت تصبّ عظيم غضبها عليهم، لتحصد من توسّع هذا الدين الجديد بين شباب قريش، إن لم توقفه وتميته.. وبذلت جهوداً كبيرة ترغيباً وترهيباً من أجل إعادتهم إلى عبادة آلهتها صاغرين..

فنزلت هذه الآية في هؤلاء المعذبين مثل: بلال وخبّاب وصهيب وعمّار وغيرهم بعد أن مكّتهم الله تعالى في المدينة المنورة بعد هجرتهم، وكانت لهؤلاء منزلة كبيرة عند رسول الله ﷺ وعند الصحابة، فهذا أبو بكر كان يقول لصهيب: ربح البيع يا صهيب، فقد ذكر أنّ صهيباً قال لأهل مكّة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم، وإن كنت عليكم لم يضركم، فخذوا مالي ودعوني، فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله ﷺ.

ويروى أنّ عمر بن الخطّاب في خلافته، كان إذا أعطى أحداً من المهاجرين عطاءً، يقول له: خذ، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما آخره لك أفضل.. ثمّ يتلو هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّتَهُمْ فِي الدُّنْيَا

(١) أنظر الاستيعاب والإصابة في تمييز الصحابة ٢: ١١٠.

(٢) سورة النحل: ٤١.



حَسَنَةً وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup> هذا ما ذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره .

فيما قال الواحدي في أسبابه : نزلت في أصحاب النبي ﷺ بمكة : بلال، وصهيب، وخبّاب، وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وأذوهم، فبؤأهم الله تعالى المدينة بعد ذلك<sup>(٢)</sup> .

لقد كان ما وعدهم ربهم حقاً حيث بؤأهم مقاماً محموداً في دنياهم ومنحهم أجراً عظيماً في آخرهم . ففازوا بالحسنتين : حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

● ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾<sup>(٣)</sup> .

لم تجن قريش من قسوتها وتعذيبها للنخبة الفقيرة المعذبة إلا اليأس والحزي، فقد باءت كل أساليبها القذرة بالفشل وراحت تفكر بطريقة أخرى للتنكيل بهم وملاحقتهم وإنزال العذاب النفسي بهم بعد أن خابت أساليبها الأخرى التي انصبت عليهم طيلة هذه الفترة .

يتمحور أسلوبها الجديد هذا بأن اطرديا محمد هؤلاء : «عمّار وصهيب وبلال وخبّاب وسلمان وأبو ذر وغيرهم من الفقراء الذين آمنوا به حين كذبه هؤلاء الطغاة، الذين يسمّون بالأشراف، ونصروه حين خذله الناس الآخرون، ومنهم هؤلاء الأثرياء وكبار قريش ..» .

فيكون لنا مجلس معك وكلام ؛ لأنّه لا يليق بنا أن يضمّنا مجلس واحد مع هؤلاء الفقراء العبيد وذوي الثياب الرثة، فنتساوى معهم، فلو نحيتهم عن مجلسك ؛ لتوافد عليك أهل الثراء والأشراف، وقد تتبعك ..

(١) سورة النحل : ٤١ .

(٢) أسباب النزول للواحدي : ٢٨٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٥٢ .

فكاد هذا الأمر أن يزرع اليأس والإحباط في نفوس هذه الفئة المظلومة لولا أن تدخلت السماء ، فنزلت هذه الآية حسماً لهذا الموقف قبل أن يترك آثاره على هؤلاء المعذبين ، ويشعر بنشوة النصر كبار قريش وزعمائها .  
يقول عبدالله بن مسعود :

مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وخبّاب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد أَرْضَيْتَ هؤلاء من قومك ؟  
أَفَنَحْنُ نكون تبعاً لهم ؟  
أَهؤلاء الذين منّ الله عليهم ؟  
اطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم اتّبعناك ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ .

فيما قال سلمان وخبّاب أيضاً : فينا نزلت هذه الآية ، جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري وذووهم من المؤلفة قلوبهم ، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخبّاب في ناس من ضعفاء المؤمنين فحقّروهم ، وقالوا : يا رسول الله لو نَحَيْتَ هؤلاء عنك حتّى نخلوا بك ، فإنّ وفود العرب تأتيناك فنستحي أن يرونا مع هؤلاء العبيد ، ثمّ إذا انصرفنا ، فإن شئت فادعهم إلى مجلسك ، فأجابهم النبي ﷺ إلى ذلك ، فقالوا له : اكتب لنا بهذا على نفسك كتاباً ، فدعا بصحيفة وأحضر عليّاً ليكتب .

قالا : ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبرئيل ﷺ بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ إلى قوله : ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ .  
فنحى رسول الله ﷺ الصحيفة ، وأقبل علينا ودنونا منه ، وهو يقول : كتب ربكم على نفسه الرحمة ، فكنا نقعد معه <sup>(١)</sup> .

(١) مجمع البيان للطبرسي ، في تفسير الآية .



هذا وكان بلال واحداً من أولئك نفر، الذين راح مشركو مكة وإن أعلنوا إسلامهم، يلاحقونهم تنديداً وسخريةً، وخاصةً بلال بن رباح الذي ترك خيبة في نفوسهم تأكل كبرياءهم وتطيح بطغيانهم، وموقفهم هذا كان استمراراً لمواقفهم وهم في مكة وهم على شركهم حينما سمعوا نبأ إيمان هذه الثلثة من الفقراء، أو العبيد، فعن عكرمة أنه قال: جاء آل شيبه وعتبة ابنا ربيعة ونفرٌ معها سَمَاهُم أبو طالب. فقالوا: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد موالينا وحلفاءنا، فإِنَّمَا هم عبيدنا وعُسْفَاؤُنَا (والعسيف هو الأجير المستهان به) كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه، فأنزل الله عز وجل الآية المذكورة ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾.

قال: وكانوا بلالاً وعمار بن ياسر مولى أبي حذيفة بن المعيرة، وسالمًا مولى أبي حذيفة بن عتبة، وصبيحاً مولى أسيد، ومن الحلفاء ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، وخباباً مولى أم أنمار.

● وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ \* أَتَّخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾<sup>(١)</sup>.

قال: يقول أبو جهل: أين بلال أين فلان أين فلان؟ كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَشْرَارِ، فلا نراهم في النار! أم هم في مكان لا نراهم فيه، أم هم في النار لا يرى مكانهم؟!

وفي رواية: أين عمار، أين بلال؟

وعن ابن عباس: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ خَبَاباً وَبَلالاً<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة ص: ٦٢-٦٣.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٣.

● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>.

تقول الرواية: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على ظهر الكعبة، فقال بعض الناس: يا عبدالله، لهذا العبد الأسود، وفي قول أصح (فقال بعض الناس: يا الله! هذا العبد الأسود أن يؤذن) أن يؤذن على ظهر الكعبة! فقال بعضهم: إن يسخط الله يغيره.

وفي خبر أنه لما جاء أمر النبي ﷺ بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة، وقريش فوق الجبال، فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد آمن.

فلما أذن وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، قالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة!

وقال خالد بن أسد: لقد كرم الله أبي، فلم ير هذا اليوم! فيما قال الحارث بن هشام: ليتني مت قبل هذا! وقال جماعة نحو هذا<sup>(٢)</sup>.

فأنزل الله جل ذكره الآية المذكورة أعلاه<sup>(٣)</sup>.

#### مكانته عند رسول الله ﷺ والمؤمنين

لقد حظي المعذبون بمكانة عظيمة أخرى.. إضافة إلى مكانتهم في القرآن الكريم - فقد كان يحبهم رسول الله ﷺ ويأنس بهم، يحالسهم، يحدثهم، يأكل مما يأكلون، لا يميز بينهم، إلا أن بلالاً كان يحظى بمعية رسول الله ﷺ وبمنزلة أقرب عنده..

حتى راح الصحابة يكرمون هذه الثلة المؤمنة المعذبة إكراماً لله ولرسوله.

تقول الرواية، عن عائذ بن عمرو: إن أبا سفيان مرَّ على سلمان وصهيب

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أنظر قاموس الرجال للتستري ٢: ٣٩٨.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٣.



وبلال في نفر، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدوّ الله مأخذها.  
فقال أبو بكر: أتقولون هذا للشيخ قريش وسيّدهم؟  
وأقّى النبي ﷺ فأخبره.  
فقال ﷺ: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ وإن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك».

فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوانه، أغضبتكم؟ قالوا: ما غضبنا، يغفر الله لك يا أخي<sup>(١)</sup>.

فبقي الصحابة يجلبونهم ويكرمونهم، لما سمعوه من رسول الله ﷺ بحقهم، ولما رأوه من عنايته بهم وتفقده لهم.

ومن علوّ مكانته عند رسول الله ورفعتها أنّ كانوا ينسبونه إليه فيقولون: بلال رسول الله ﷺ. فقد حدث مرّة أنّ شاعراً امتدح شخصاً اسمه بلال وكان ابن عبد الله بن عمر، فقال في شعره من الطويل:

بلال بن عبد الله خير بلال

فقال له ابن عمر: كذبت، بل بلال رسول الله ﷺ خير بلال.

ولم يعهد من عمر بن الخطاب إلّا أنّه كان ينادي بلالاً (سيّدنا) وكان يأذن له ولاخوانه المعذّبين بدخول مجلسه قبل أن يأذن لشيوخ قريش وأشرافها كما مرّ بنا. وفي خبر آخر - يدلّ على ملاحقة رسول الله ﷺ أصحابه تربيةً وتهذيباً من أدران الجاهلية وما علق بنفوسهم منها - يقول: عيّر أبو ذرّ بلالاً بأّمّه فقال: يا ابن السوداء!، وإنّ بلالاً أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فغضب! فجاء أبو ذرّ ولم يشعر، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: ما أعرضك عني إلّا شيء بلغك يا رسول الله، قال: أنت الذي تعيّر بلالاً بأّمّه؟

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٦.

قال النبي ﷺ: والذي أنزل الكتاب على محمد - أو ما شاء الله أن يحلف - ما لأحدٍ على أحدٍ فضل إلا بعمل، إن أنتم إلا كطف الصّاع.

أي كلّكم قريب، بعضكم من بعض، فليس لأحد فضل إلا بالتقوى؛ لأنّ طِفّ الصّاع قريب من ملئه، فليس لأحد أن يقرب الإناء من الامتلاء<sup>(١)</sup>.

وفي رواية تقول: إنّ بني أبي البُكير جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: زوّج أختنا فلاناً، فقال لهم:

أين أنتم من بلال؟

ثمّ جاؤوا مرّة أخرى، فقالوا: يا رسول الله أنكح أختنا فلاناً.

فقال: أين أنتم عن بلال؟

ثمّ جاؤوا الثالثة فقالوا: أنكح أختنا فلاناً.

فقال: أين أنتم عن بلال، أين أنتم عن رجل من أهل الجنّة؟! قال زيد بن أسلم صاحب هذه الرواية: فأنكحوه<sup>(٢)</sup>.

#### رحمتها رحمك الله

وحظي بلال بدعاء رسول الله ﷺ له بالرحمة حينما مرّ بلال ببيت من البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، حيث يقول بلال: مررتُ على فاطمة عليها سلام الله، وهي تعالج الرّحا، قال: وابنها الحسين يبكي، قال: وحانت الصلاة، قال بلال:

فقلت لفاطمة: أيما أعجب إليك؟! أكفيك الرّحا أو الصبي؟

ف قالت فاطمة: أنا ألطف بصبيي.

قال: فأخذتُ بقيّة الطحن، فطحنته عنها.

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٢، وانظر لسان العرب: طفف.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٢.



فَأْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

يَا بِلَالُ مَا حَبَسَكَ؟

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَرَرْتُ عَلَى فَاطِمَةَ وَهِيَ تَعَالِجُ الرَّحَا، فَأَعْنَتْهَا عَلَى طَحْنِهَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَحِمَتْهَا رَحِمَكَ اللَّهُ (١).

ذَرْنِي أَذْهَبْ إِلَى اللَّهِ:

كَلِمَاتٌ مَا أَعْظَمَهَا نَطَقَ بِهَا لِسَانُ هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ! فَقَدْ قَالَ يَوْمًا لِأَبِي بَكْرٍ: إِنْ كُنْتُ أَعْتَقْتَنِي اللَّهُ فَدَعْنِي حَتَّى أَعْمَلَ لِلَّهِ، أَوْ فَذَرْنِي أَذْهَبْ إِلَى اللَّهِ. وَإِنْ كُنْتُ أَعْتَقْتَنِي لَتَتَّخِذْنِي خَادِمًا فَاتَّخِذْنِي.

فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّمَا أَعْتَقْتُكَ لِلَّهِ، فَاذْهَبْ فَاعْمَلْ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ، تَجَهَّزَ بِلَالٌ لِيَخْرُجَ إِلَى الشَّامِ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: مَا كُنْتَ أَرَاكَ يَا بِلَالُ تَدْعُنَا عَلَى هَذَا الْحَالِ، لَوْ أَقَمْتُ مَعَنَا فَأَعْنَتْنَا.

قَالَ: إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا أَعْتَقْتَنِي اللَّهُ تَعَالَى، فَدَعْنِي أَذْهَبْ إِلَيْهِ، وَإِنْ كُنْتُ أَعْتَقْتَنِي لِنَفْسِكَ فَاحْبِسْنِي عِنْدَكَ.

**بِلَالُ الْمُؤَدِّنِ وَأَجْرُهُ الْعَظِيمُ**

رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَدْ بَشَّرَ بِلَالًا وَالْمُؤَدِّنِينَ بِالْجَنَّةِ:

● نَعَمْ الْمَرْءُ بِلَالٌ، وَلَا يَتَّبِعُهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَهُوَ سَيِّدُ الْمُؤَدِّنِينَ، وَالْمُؤَدِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

● يَحْشُرُ الْمُؤَدِّنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نَوْقٍ مِنْ نَوْقِ الْجَنَّةِ، يَقْدِمُهُمْ بِلَالٌ رَافِعِي أَصْوَاتِهِمْ بِالْأَذَانِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الْجَمْعُ، فَيَقَالُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَيَقَالُ: مُؤَدِّنُو أُمَّةٍ

(١) أَنْظَرُ مَخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ ٥: ٢٦٢ - ٢٦٣.



- محمد ﷺ، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون.
- اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم من سادات الجنة، لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن.
- أبشر يا بلال، فقال: بئس تبشّرني يا عبد الله بن عمر؟
- فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يجيء بلال يوم القيامة معه لواء يتبعه المؤذنون حتى يدخلهم الجنة.
- قال رسول الله ﷺ: ... ثم نظر إلى بلال فقال:
- يُحشر هذا على ناقه من نوق الجنة، فيقدمنا بالأذان محضاً، فإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قالت الأنبياء مثلها: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله.
- فإذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله، فمن مقبول منه ومردود عليه.
- قال: فيتلق بجلّة من حلل الجنة، وأول من يكسى يوم القيامة من حلل الجنة بعد الأنبياء، الشهداء وصالح المؤذنين.
- وفي رواية أخرى: وأول من يكتسى من حلل الجنة بعد النبيين والشهداء بلال وصالح المؤذنين.
- .. أنفق يا بلال، ولا تخشى من ذي العرش إملاًقاً.
- «يا بلال مت فقيراً ولا تمت غنياً» قلت: فكيف لي بذلك يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: «هو ذلك أو النار».
- وعن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: إلى عليٍّ، وعمار، وبلال.
- يا بلال، ليس شيء أفضل من عملك، إلا الجهاد في سبيل الله.
- قال رسول الله ﷺ فيه: «نعم المرء بلال، وهو سيّد المؤذنين».
- وفي أخرى: يجيء بلال يوم القيامة مع لواء يتبعه المؤذنون حتى يدخلهم الجنة.



### من صفاته الجميلة: الصدق والتواضع

لم تزد له سابقته في الإسلام وجهاده وعطاؤه واحترام رسول الله ﷺ له وحبّه إيّاه واحترام المسلمين له، إلّا تواضعاً وحياءً وصدقاً، لم يكن يسمع كلمات المدح والثناء توجّه إليه، وتغدق عليه، إلّا ويحني رأسه ويغضّ طرفه ويقول ودموعه على وجنتيه تسيل: إنّما أنا حبشيّ.. كنت بالأمس عبداً...!.  
وتقول الرواية:

خطب بلال رضي الله عنه، وأخوه إلى أهل بيت من اليمن.  
فقال: أنا بلال، وهذا أخي، عبدان من الحبشة، كُنّا ضالّين، فهدانا الله، وكُنّا عبيدين فأعتقنا الله، إن تتكحونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر<sup>(١)</sup>.  
وفي رواية أنّ أخاه كان يزعم أنّه من العرب، فخطب امرأة من العرب، فقالوا: إن حضر بلال بن رباح، وهذا أخي وهو امرؤ سوء في الخلق والدين، فإن شئتم أن تزوّجوه فزوّجوه، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا، فقالوا: من تكون أخاه نزوّجه فزوّجوه.

### مواقف تغيظهم

طالما كان بلال يبحث عن أي موقف أو كلمة يغيض بهما الكفّار والظالمين، بل غيظهم وغضبهم عليه، يعدّ في قاموسه عزّاً له وسعادةً يكتسبها في الدُّنيا والآخرة، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فقد كان بلال من السبعة الأوائل، الذين أعلنوا إسلامهم، فكان موالى بلال

(١) الطبقات الكبرى ٣: ٢٣٧.

(٢) التوبة: ١٢٠.

يأخذونه فيضجعونه في الشمس، ثم يأخذون الحجر فيصّفونه على بطنه ويعصرونه، ويقولون: دينك اللات والعزى. فيقول: ربّي الله، ويقول: أحدٌ أحد، فقال: وايم الله، لو أعلم كلمة هي أغيضُ لكم منها لقلتّها.

دخل رسول الله ﷺ الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذّن. وأبو سفيان وعتّاب بن أُسيد والحارث بن هشام، جلوس بفناء الكعبة. فقال عتّاب بن أُسيد: لقد أكرم الله أُسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه.

فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنّه مُحَقٌّ لا تبتّعه. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى. فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: قد علمتُ الذي قلتُم، ثم ذكر لهم. فقال الحارث وعتّاب: نشهد أنّك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك.

وفي خبر آخر - ما كان أعظمه وأشدّه على قلب بلال - لما كان يوم الفتح، رقيّ بلال فأذّن على ظهر الكعبة، فقال بعض الناس: ... لهذا العبد الأسود أن يؤذّن على ظهر الكعبة.

فقال بعضهم: إن يسخط الله بغيره، وقال آخر يخاطب أبا جهل في قبره: ... ولا تنظر هذا الحمار ينهق.

حقاً ﴿ولا يطنون موطئاً يغيظ الكفار...﴾.

#### الجزء العادل

لم ينسَ بلال أميّة أبداً... أمنية راودته بل عاشت في كيانه وأخذت عليه حياته، أن يمكّنه الله منه، وقد كان لا ينساه، لأنّه معذّبه ومخرجه من مكّة، يقول الخبر: كان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:



ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً  
و هل أُرِدَنُ يوماً مياهٍ مجنَّةٍ  
بوادٍ و حولي إذ خَرُّ و جليل  
و هل يَتَدَوَّنُ لي شامةٌ و طفيل

ثمَّ يبدأ بلعنهم : اللهمَّ العن عتبة بن ربيعة و شيبه بن ربيعة و أمية بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء <sup>(١)</sup> .

حتى جاءت معركة بدر ، فكان اللقاء ، وكانت تصيفة الحساب ..  
نعم ، تأتي بدر و تقع قريش في هزيمة نكراء ، حلت بها ، ولقنتها درساً عجيباً ... و هنا همَّ أمية بن خلف بالنكول ، لولا أنَّ صديقه عقبة بن أبي معيط و هو المحرَّض على تعذيب المؤمنين ، أخذ يحفزُه و يشجِّعه حيث جاءه حاملاً معه (مجمرة) حتى إذا واجهه و هو جالس وسط قومه ، ألقي الجمرة بين يديه و قال له : يا أبا علي استجمر بهذه ، فإنما أنت من النساء .. و صاح به أمية قائلاً : قبحك الله ، و قبح ما جئت به .. ثمَّ لم يجد إلا أن يترك نكوصه و يخرج إلى بدر ، ليتقدَّم في المعركة ..  
هذا ما شاءته الأقدار .. حيث خرج أمية للمعركة و اشتجرت الأسنة و تعاقت السيوف .. فالتقى الحصان وجهاً لوجه .. إنَّه أمية و هو يسمع انشودة بلال و شعاره أحدٌ أحدٌ .. إنَّه بلال !

نعم أمية بن خلف .. بلال بن رباح  
زعيم من زعماء قريش .. عبدٌ حبشي .. إنَّه الكفر كله قبال الإيمان كله .  
حقاً ، إنَّها إرادة الله ، يخذل الطغاة و ينصر المستضعفين المعذبين : «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» .  
فيصرخ بلال بأعلى صوته : إنَّه «رأس الكفر أمية بن خلف ..» ثمَّ يعلو صوته ، صوت المذبذب : لا نجوت إن نجا ، لا نجوت إن نجا ...» .  
وينقض عليه بلال بسيفه كالأسد الهصور ليقضي عليه ، بضربة نجلاء ،

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥ : ٢٥٨ - ٢٥٩ .

قاضية نافذة، يروي بها ظمأ الهاجرة في فؤاده، لولا أن صاح به عبد الرحمن بن عوف، فيقول: أي بلال.. إنّه أسيري.

لم يقنع بلال نفسه بهذا الأسر، لرأس طالما أثقله الكبر والغرور.. وهنا وقف بلال وهو في أعلى درجات غضبه، كاسف البال مهموماً، فهو يريد أن ينتقم من أكبر أعداء الله والإسلام. لكن حمى عبد الرحمن بن عوف مصون..

فقد غنم أدراعاً يوم بدر فمّر بأمية بن خلف وابنه، فقال له: نحن خير لك من هذه الأدرع.. أي خذنا أسيرين نسلم من القتل وتأخذ فداءنا فطرح الأدرع وأخذ بيدهما ومشى بهما.. إلا أنّه خسر الأدرع وخسر أسيره أُمّيه، فقد قتل هذا الأخير حتّى قال عبد الرحمن: رحم الله بلالاً ذهبت إدراعي وفجعتني بأسيري.

فقد التفت بلال إلى المجموع المقاتلة من المسلمين ليؤلّهم ويستعديهم على هذا الظالم، وإن تركه هو رعايةً لحمى عبد الرحمن، فليروا رأيهم فيه، وهو يتمنّى أن لا يتركوه حيّاً.. فإن لم يستطع أن يشفي بيده قلبه... فليدع الأمر لهم.

فصاح بهم إنّه أُمّية بن خلف، يا أنصار الله، رأس الكفر أُمّية بن خلف.. لا نجوت إن نجا.. إلا أنّه حيل بينه وبين ما يريد..

فانقضّ عليه المسلمون ضاربين حراهم ومسدّدين قذائفهم إلى صدر غريمهم، وعدوّ الإسلام، وفي هذه اللحظة لم يستطع عبد الرحمن بن عوف أن يحميه<sup>(١)</sup>.

وهناك من يقول: إنّ بلالاً هو الذي قتله، حتّى قال فيه أحد الشعراء أبياتاً منها قوله:

هنيئاً زادك الرحمن خيراً      فقد أدركت ثأرك يا بلال<sup>(٢)</sup>

(١) أنظر صحابة النبي للجميل: ١٧٦.

(٢) أنظر أعيان الشيعة ٣: ٦٠٤.



وقد يسأل سائل : لماذا لم يصفح بلال الصفح الجميل ؟  
 إنّ من يطلب ذلك ، عليه أن يجعل نفسه مكان بلال نفسه ، وأن يمرّ بما مرّ به  
 بلال وما ناله من معذّبيه ، ونترك خالد محمّد خالد يجيب عن هذا التساؤل :  
 لا أظنّ أنّ من حقّنا أن نبحث عن فضيلة التسامح لدى بلال في مثل هذا  
 المقام .

فلو أنّ اللقاء بين بلال وأمّية تمّ في ظروف أخرى ؛ لجاز لنا أن نسأل بلالاً  
 حقّ التسامح ، وما كان لرجل في مثل إيمانه وتقواه أن يبخل به .  
 لكن اللقاء الذي تمّ بينهما ، كان في حرب ، جاءها كلّ فريق ليفني غريمه ..  
 السيوف تتوهّج ، والقتلى يسقطون ... والمنايا تتوالت ، ثمّ يبصر بلال أمّية  
 الذي لم يترك في جسده موضع أغلّة إلّا ويحمل آثار تعذيبه ..  
 وأين يبصره وكيف ؟

يبصره في ساحة الحرب والقتال ، يحصد بسيفه كلّ ما يناله من رؤوس  
 المسلمين ، ولو أدرك رأس بلال ساعتئذ ؛ لطوّح به ..  
 في ظروف كهذه يلتقي الرجلان فيها ، لا يكون من المنطق العادل في شيء أن  
 نسأل بلالاً : لماذا لم يصفح الصفح الجميل ؟!

#### بلال والفاجعة الكبرى

ظلّ بلال مواكباً لرسول الله ﷺ طيلة حياته الإيمانية معه ، قريباً منه ، وعينان  
 تتبركان برؤيته .. فدخل بلال على رسول الله ﷺ إلّا أنّه في هذه المرّة وجده مسجّياً  
 على فراشه .  
 فما كان منه وهو الحبيب إلّا أن انحدرت دموعه غزيرة ، واستقرّ حزنه في  
 قلبه .

نزل الأمر المحتوم ، صلّى على الجثمان الطاهر ، ثمّ خرج ودموعه على وجنتيه ..  
 وما إن دفن رسول الله ﷺ حتى جلس بلال في زاوية من زوايا المسجد وحده

في حزن عظيم.. وظلّ هكذا متألماً باكياً حتّى حان وقت الأذان، والمسلمون ينتظرون بلالاً وصوته الندي.. لكنّه لم يؤذّن.

وأحسّ بالفراغ الكبير، ثمّ راح يتساءل مدهوشاً لمن يؤذّن؟ لم ينم حتّى الصباح، حيث اللقاء في المسجد، فحان وقت صلاة الفجر، وعلى بلال أن يؤذّن لها..

ف قيل له: الأذان يا بلال.

ارتفع صوت بلال ندياً جميلاً رائعاً:

الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

وهنا عادت المصيبة ماثلة أمام عينيه.. فاحتبست الشهادة الثانية في فيه، وحشرجت آهاته في صدره.. وانهمرت دموعه.. ولم يتمالك نفسه فراح الجميع يشاركه البكاء..

بقي بلال طويلاً لا ينطق بها... ثمّ تغلّب الرجل على عواطفه وأحزانه وعبراته المتدفقة فنطق بها، ولكن بصوت هادئ هذه المرّة ثمّ أكمل فصول الأذان، إنّه الأذان الأخير..

فقال والدموع في عينيه: لن أؤذّن بعد اليوم، فليؤذّن غيري، وفعلوا ظلّ هكذا ولم يؤذّن، وحتّى بعد أن تولّى الخلافة أبو بكر، وقال لبلال: أذّن.

فأبى بلال وقال له: إن كنت إنّما اشتريتنى لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتنى لله، فدعني وعملي لله، فقال أبو بكر: ما أعتقتك إلا لله.

فأجابه بلال والحزن مرسم على وجهه: فإنّي لا أؤذّن.

ثمّ لم يطق البقاء في المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، وحاول مرّات أن يخرج إلى



الجهاد في أيِّ مكان كان بعيداً عن أجواء المدينة .  
إلا أنَّ جمعاً من الصحابة منعه، وكان منهم أبو بكر، حيث قال له متوسلاً:  
أنشدك بالله يا بلال! وحرمتي وحقِّي، فقد كبرت وضعفت واقترب أجلي، فأقام  
معه حتَّى توفي<sup>(١)</sup>.

وفي خلافة عمر ألحَّ عليه أن يؤذِّن فأبى .  
فقال له : إلى من ترى أن أجعل النداء ؟  
قال : إلى سعد، فقد أذنَّ لرسول الله ﷺ، فجعله إلى سعد وعقبه<sup>(٢)</sup>.  
ثم قرَّر بلال أن يخرج إلى الجهاد في الشام، فذهب إلى عمر يستأذنه بالخروج  
فقال له :

ألا تبقى يا بلال بجواري، كما كنت بجوار النبي ﷺ وبجوار أبي بكر؟  
فقال بلال : أحنَّ إلى الجهاد يا أمير المؤمنين، وأرى الجهاد من أفضل  
الأعمال .

فقال له عمر : لك ما تريد يا بلال .  
وأذن له، فخرج إلى الشام ولحق بجيش أبي عبيدة الجراح، وظلَّ مجاهداً في  
سبيل الله .

ويزور عمر بن الخطَّاب الشام أثناء خلافته، ويلتقي مع بلال، ويتوسَّل  
المسلمون إلى عمر أن يطلب من بلال ليؤذِّن لهم ولو بصلاة واحدة!  
ولما حان وقت الصلاة، رجاه عمر أن يؤذِّن لها، واستجاب بلال لطلبه،  
وصعد بلال، فأرَّهف الناس سمعهم، وانطلق صوته النديُّ يسري كالنسيم،  
ويسمع الناس صوته للمرَّة الأولى بعد وفاة النبي ﷺ، ولم يُرَ يوماً كان أكثر باكياً من

(١) سير أعلام النبلاء ١: ٣٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١: ٣٥٦-٣٥٧.



يومئذٍ، ذكراً منهم للنبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

#### بلال عند علماء الرجال والحديث

كانت لبلال منزلة كبيرة ومرموقة عند علماء الرجال والحديث، ولم أجد - فيما تيسر لي - قادحاً دأماً له أبداً، نذكر شيئاً مما قاله بعضهم فيه:

فقد قال عنه الشيخ الطوسي في رجاله:

شهد بدرأ، وتوفي بدمشق، في الطاعون سنة (١٨)، كنيته أبو عبدالله، وقيل: أبو عمرو، ويقال: أبو عبد الكريم وهو بلال بن رباح، مدفون بباب الصغير بدمشق، من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال عنه الكشي: كان بلال عبداً صالحاً.

وروى الصدوق في باب الأذان والإقامة من الفقيه:

... عن أبي بصير، عن أحدهما عليه السلام أنه قال: إن بلالاً كان عبداً صالحاً، فقال: لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ فترك يومئذٍ (حي على خير العمل).

وروى أيضاً: أنه لما قبض النبي ﷺ، امتنع بلال من الأذان، وقال: لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، وأن فاطمة عليها السلام قالت ذات يوم: إنني أشتي أن أسمع صوت مؤذن أبي عليه السلام، فبلغ ذلك بلالاً، فأخذ في الأذان، فلما قال: الله أكبر، الله أكبر، ذكرت أباه عليه السلام وأيامه فلم تتمالك من البكاء، فلما بلغ إلى قوله: أشهد أن محمداً رسول الله، شهقت فاطمة عليها السلام شهقةً، وسقطت لوجهها وغشي عليها.

فقال الناس لبلال: أمسك يا بلال، فقد فارقت ابنة رسول الله ﷺ الدنيا، وظنوا أنها قد ماتت، فقطع أذانه ولم يتمه.

فأفاقت فاطمة عليها السلام وسألته أن يتم الأذان، فلم يفعل، وقال لها: ياسيدة النسوان، إنني أخشى عليك مما تنزلي به نفسك إذا سمعت صوتي بالأذان، فأعفته

(١) أنظر سير أعلام النبلاء ١: ٣٥٧.



عن ذلك<sup>(١)</sup>.

وروى منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: لما هبط جبرئيل عليه السلام بالأذان على رسول الله ﷺ، وكان رأسه في حجر علي عليه السلام، فأذن جبرئيل عليه السلام وأقام، فلما انتبه رسول الله ﷺ، قال: يا علي سمعت؟  
قال عليه السلام: نعم يا رسول الله ﷺ.

قال: حفظت؟

قال: نعم.

قال: ادع بلالاً، فعلمه.

فدعا بلالاً، فعلمه<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد ذكر الصدوق في الفقيه حديثاً طويلاً لبلال، يحدث به عما سمعه من رسول الله ﷺ حول المؤذنين، وظيفتهم، وأجرهم...<sup>(٣)</sup>.

وعن المجلسي الأول أنه قال: رأيت في بعض كتب أصحابنا عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام، وعن أبي البخري قال: حدثنا عبد الله بن الحسن أن بلالاً أبي أن يبايع أبا بكر وأن عمر أخذ بتلابيبه، وقال له: يا بلال هذا جزاء أبي بكر منك أن أعتقك، فلا تجيء تبايعه.

فقال: إن كان قد أعتقني لله فليدعني لله، وإن كان أعتقني لغير ذلك، فهذا أنذا، وأما بيعته فما كنت أبايع من لم يستخلفه رسول الله ﷺ، والذي استخلفه بيعته في أعناقنا إلى يوم القيامة.

فقال له عمر: لا أبا لك، لا تقم معنا، فارتحل إلى الشام وتوفي بدمشق ودفن بباب الصغير، وله شعر في هذا المعنى:

(١) من لا يحضره الفقيه، للصدوق ١: ٢٩٨.

(٢) أنظر معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ٤: ٢٧٠ - ٢٧٢.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٩٢ - ٢٩٧.

بالله لا بأبي بكر نجوت ولو      لا الله نامت على أوصالي الضبع  
 الله بوأني خيراً وأكرمني      وإنما الخير عند الله يتبع  
 لا تلقيني تبوعاً كل مبتدع      فلست مبتدعاً مثل الذي ابتدعوا<sup>(١)</sup>

ولا بد لي من كلمة ولو قصيرة: إن ترك بلال المدينة والابتعاد إلى الشام يبدو أنه لا يخلو من موقف من الوضع القائم بعد رسول الله ﷺ، وحتى امتناعه من الأذان. وختاماً

لم تكتب لهذا الصحابي الجليل الشهادة التي تمنّاها طويلاً، وسعى إليها سعيًا حثيثاً أي مسرعاً حريصاً على أن ينالها فيلتحق بركبها، ركب الشهداء، إلا أن السماء شاءت لهذا العبد الصالح أن يبقى متعلقاً بوصالها، مشتاقاً لها... حتى كان مواعده مع الطاعون الذي اجتاح الشام يومذاك ففضى على حياة الكثير، وأصيب به بلال سنة عشرين للهجرة فكانت وفاته بدمشق، وبعد أن أصيب بلال به وتغيّر لونه وغارت عيناه، قالت له زوجته مواسيه:

كيف حالك يا أبا عبدالله؟

فكان يقول لها: دنا الفراق.

فقالت له: واحزنه.. واحزنه..

وعندها، فتح بلال عينيه، وهو يصارع المرض ويجود بأنفاسه الأخيرة.

بل، وافرحته، غداً نلقي الأحبة، محمدًا وصحبه!!

إذ حرمت يا بلال من الشهادة، وكنت حريصاً عليها حرصاً شهد لك به الجميع منذ لحظات إسلامك الأولى، فإنك لم تحرم أجرها ومنزلتها عند مليكٍ مقتدر... دفن في مقبرة.. في دمشق بباب الصغير...

فسلام عليك عبداً صالحاً وفياً...

(١) انظر أعيان الشيعة ٣: ٦٠٣.